بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّ الفتن الملمَّة والأحداث المدلهمة إذا حلَّت بالناس ونزلت بهم أظهرت حقائقهم وكشفت معادنهم وميَّزت طيِّبَهم من خبيثهم وحسنهم من سيِّئهم، ولله الحكمة البالغة في ذلك ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال:٣٧]، وهذه من حكمة الله في ابتلائه خلقه، قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد].

والحياة كلها ميدان ابتلاء ودار امتحان والناس فيها ليسوا سواء ؛ فمنهم مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ، ومنهم من يعبد الله على علم وبصيرة وإيمان راسخ وعقيدة صحيحة ؛ فإن أصابته فتنة صبر فكان خيراً له، وإن أصابته نعمة شكر فكان خيراً له، وهذا لا يكون لأحد إلا للمؤمن، فأمره كله خير، وأحواله كلها حسنة طيبة، وعواقبه كلها حميدة ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف].

إنَّ للإيمان الصحيح والعقيدة السليمة أثراً قويًا ودوراً بارزاً في التغلب على الأحداث والملمات، والمصائب والمحن، والنوازل والفتن ؛ ذلك أنَّ صاحب الإيمان الصحيح والعقيدة السليمة تعلَّم من دينه أموراً مهمة ودروسًا عظيمة تُعينه على الثبات في الأحوال ولا حول ولا قوة إلا بالله، ومن أهم هذه الأمور ما يلي:

أولاً: أنه يعلم علم يقين لا يخالطه شك ولا يداخله ريب أنَّ خالق هذا الكون وموجده ومدبر شؤونه هو الله وحده لا شريك له، وأنه وحده المتصرِّف فيه، وأنه لا يكون فيه إلا ما شاء تبارك وتعالى، فأزمَّة الأمور كلها بيده، ومقاليد

السماوات والأرض كلها له، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فلله ملك السماوات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير.

ثانيا: أن الله جل وعلا تكفَّل بنصر أهل الإيمان وحفظ أهل الدين، ووعد بذلك ووعده الحق، وأخبر بذلك في كتابه وكلامه صدق وحق، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾﴾ [محمد]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج]، وقال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ [الروم].

ثالثا: أنَّ الله وعد في كتابه بخذلان الكافرين وإبادتهم وقصم ظهورهم وقطع دابرهم وجعلهم عبرة للمعتبرين وعظة للمتعظين كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ [التوبة:٩٨]. وشواهد ذلك في التاريخ كثيرة لا تحصى وعديدة لا تُستقصى، فهو سبحانه يملي للظالم ولا يهمل، وإذا أخذه أخذه بغتة ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود]

رابعا: أن المؤمن يعلم أنه لن تموت نفسٌ حتى تستوفي أجلها وتستتم رزقها، فلن يموت أحد قبل منيَّته ولا بعدها ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يونس]، فالآجال محدَّدة والأعمار مؤقَّتة، ولكل أجل كتاب ولكل نفس ميعاد، ولا يحول بين المرء وبين أمر الله شيء، كما قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٨]، فلا القصور المنيعة تحمي، ولا السراديب الخفية تقي، ولا البروج المشيدة تمنع.

خامسا: أنَّ المؤمن لشدة ثباته وقوة يقينه لا تزعزعه الأراجيف ولا تخوِّفه الدعايات، بل إنه إذا خوِّف بالذين من دون الله زاد إيمانًا وثقة بالله وتوكلاً واعتماداً عليه، كمثل الصحابة ﭫ ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران].

وعن ابن عباس ﭬ أنه قال: « ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ »(١)

ومعنى حسبنا الله: أي كافينا.

سادسا: أنَّ صاحب الإيمان الصحيح لا يعتمد في أموره كلها إلا على الله وحده ولا يفوض أموره إلا له ولا يتوكل إلا عليه ولا يستعين إلا به، قال تعالى ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣] ، وقال تعالى ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة]، وقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨] ولهذا كان من دعائه ﷺ كما في حديث ابن عباس ﭬ أنه كان يقول: «اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ»(٢).

وضرب في السيرة العطرة أروع الأمثلة وأبلغها في الثقة بالله وشدة الاعتماد عليه، ومن ذلك - على سبيل المثال - ما ثبت في حديث جابر بن عبد الله ﭬ:

(١) رواه البخاري (٤٥٦٣).
(٢) رواه البخاري (٧٣٨٣)، ومسلم (٢٧١٧) واللفظ له.

أَنَّهُ غَزَا مَعَ النبي ﷺ فَأَدْرَكَتْهُمُ الْقَائِلَةُ فِي وَادٍ كَثِيرِ الْعِضَاهِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَتَفَرَّقَ النَّاسُ يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ، فَنَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ تَحْتَ سَمُرَةٍ وَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ وَنِمْنَا نَوْمَةً فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدْعُونَا وَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: «إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ عَلَيَّ سَيْفِي وَأَنَا نَائِمٌ فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلْتًا فَقَالَ مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي فَقُلْتُ اللهُ » – ثَلَاثًا – وَلَمْ يُعَاقِبْهُ وَجَلَسَ[٣]. فتأمل هذا الثبات العظيم والثقة الكاملة بالله تعالى، فالله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين.

سابعا: أَنَّ المؤمن يعلم أنَّ التوكل الحقيقي لا يتم إلا بأمرين اثنين لابد منهما:

الأول: اعتماد القلب على الله واستناده إليه وسكونه إليه –كما قال ابن القيم رحمه الله[٤] – بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشوش الأسباب ولا سكون إليها، بل يخلع السكون إليها من قلبه ويلبسه السكون إلى مسببها وهو الله. وعلامة هذا: أنه لا يبالي بإقبالها وإدبارها ولا يضطرب قلبه ويخفق عند إدبار ما يحب منها وإقبال ما يكره، لأن اعتماده على الله وسكونه إليه واستناده إليه.

والثاني: إثبات الأسباب والقيام بها، وقد كان سيد المتوكلين وإمامهم وحامل لوائهم محمد ﷺ يقوم بفعل الأسباب وما أخلَّ بشيء منها ؛ فقد ظاهر بين درعين يوم أحد، واستأجر دليلاً مشركًا على دين قومه يدلُّه على الهجرة، وكان يدَّخر القوت لأهله، وكان إذا سافر في جهاد أو حج أو عمرة حمل الزاد معه، وجميع أصحابه كانوا كذلك، فهم أولوا التوكل حقًا.

فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل، ومن اعتمد على الأسباب لم يكن

(٣) رواه البخاري (٢٩١٣) ومسلم (٨٤٣).
(٤) في كتابه «مدارج السالكين» ص (١٢١).

من أهل التوكل، والأمر كما قال بعض أهل العلم: «الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدحٌ في الشرع، وإنما التوكل والرجاء معنى يتألَّف من موجب التوحيد والعقل والشرع»[٥].

ثامنا: ثمَّ إنَّ المؤمن في الأمور الملمات والأحوال المدلهمات يجد من قلبه إقبالاً شديداً على الله وانكساراً بين يديه وخضوعًا له، فتراه مقبلاً على الله بالدعاء والسؤال والرجاء أن يجنِّب المسلمين الفتن ويخلِّصهم من المحن، والله تبارك وتعالى قريب من عباده يسمع نداءهم ويجيب دعاءهم ويغيث ملهوفهم ويجبر كسيرهم ويكشف مصيبتهم ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل:٦٢]، لا أحد غيره تعالى، فمن سأله بصدق وإخلاص وعزيمة ورجاء أجاب دعاءه وحقَّق رجاه فهو القريب المجيب سبحانه. ولربما انكشف ما يحلّ بالمسلمين من بلاء وما ينزل بهم من محن بدعوة صالحة من رجل صالح في لحظة انكسار وساعة إجابة، فالدعاء أمره عظيم وشأنه جليل رجل صالح في لحظة انكسار وساعة إجابة، فالدعاء أمره عظيم وشأنه جليل.

واللهَ المسؤول وحده أن يجنِّبنا والمسلمين الفتن ما ظهر منها وما بطن، فلا إله إلا الله وحده، نصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده. وصلى الله وسلَّم وبارك وأنعم على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

(٥) انظر «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله» (٨/ ١٦٩).

ثبات أهل الإيمان في الفتن

إعداد
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

دار المحجة

شارك في الدعوة إلى الله بنشر هذه المطوية لتكون لك حسنة جارية